الثقافة الإسلامية

(٣٨)

الشهادة والشهود

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٣٨ -

* * *

اسم الكتاب: ....الشهادة والشهود
المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:........ مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى* أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى* أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى* أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى* أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }.

العلق/ ٩ - ١٤

الدنيا دار الشهود

هل الدنيا دار شهود أم دار خفاء؟

وهل بمقدور الإنسان أن يتكتّم بأعماله في الحياة الدنيا، فيخفيها ويسترها فلا يشعر بها أحدٌ، أم انّه مرصود في كلّ عمل يعمله أو قول يصدر عنه، أو خطرات قلب تمرّ في خاطره فلا يخفى منه شيء مهما حاول ذلك؟

إن خاصّية الشهود هي خاصيّة النور، وإنّ خاصّية الخفاء هي خاصّية الظلام، ومن طبيعة النور أن يكشف الأشياء، ومن خاصّية الظلام أن يخفي الأشياء.

والآن نعيد طرح السؤال بعبارة أخرى في ضوء هذه الخاصّية وتلك.

فأقول: هل يعيشُ الإنسان في الحياة الدنيا محفوفاً بالظلام، فيستطيع أن يستتر بأعماله، أم أنّه يعيش في النور، فلا يمكنه أن يتكتم بقول أو فعل أو قصد؟

إن سلوك الإنسان وعقيدته رهن الإجابة على هذا السؤال، فالذين يؤمنون بأن الإنسان في الدنيا مشهود مكشوف يراقب

نفسه لا محالة من المحظورات والانحرافات والمحرمات.

والذين يؤمنون بأن الإنسان بوسعه أن يتكتم في أفعاله ويستتر من كل أحد، يتحلل من كل التزام في اعماله وأقواله.

والأول هو منهج الانضباط و(التقوى) والثاني هو منهج التحلل و(الفجور).

فما هو حكم القرآن الكريم في ذلك؟

إن القرآن الكريم يحكم وبكلّ وضوح أنّ دار الدنيا دار شهود وليس فيها من موضع للخفاء، وكلّ ما يصدر عن الإنسان، بل ما يخطر في قلبه أيضاً خاضع إلى «كشف» و«رصد» دقيقين.

وربما يغفل الإنسان عن الكشف والرصد اللذين يخضع لهما، فيتوهّم أنّه يعيش في الخفاء عندما يبتعد عن عيون الناس، وكأنّه غير خاضع للمراقبة والرصد، ولكن الشهود الّذين سلّطهم الله تعالى عليه، ومكّنهم من معرفة أحواله، لا يغادرون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله إلا أحصوها عليه.

{مَال هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصَاهَا}(١).

إن مثل الإنسان في هذه الدنيا كمثل النعامة تخفي رأسها في الثلج حينما يداهمها الصيّادون، فتتوهّم أنّهم لن يروها.

يقول القرآن الكريم على لسان لقمان عليه السلام فيما كان يعظ به ابنه:

{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}(٢).

فلا يخفى على الله سبحانه وتعالى شيء عن أمر خلقه، ولا يغيب، ولا ينفلت شيء من قبضة سلطانه، حتى لو كان مثقال حبة من خردل في عمق صخرة أو في باطن الأرض أو في أبراج السماوات.

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) لقمان: ١٦.

ويقول تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(١).

ويقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(٢).

إذن، فان الله تعالى مع الإنسان في كل حالاته، ولا يستطيع أن يغيب عن مراقبته، أو يستتر عن شهوده {هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} وليس بعد المعية الإلهيّة من معية أو

---

(١) يونس: ٦١.

(٢) المجادلة: ٧.

حضور أو شهود أقوى من معية الله تعالى وحضوره وشهوده.

معية المراقبة ومعية التكريم

إن المعية التي أشرنا إليها معية (مراقبة)، والمعية الإلهية معيّتان:

معية تكريم، ومعية مراقبة.

وتختص الأُولى منهما بعباد الله الصالحين الذين يفيض عليهم سبحانه بتكريمه، فيسبغ عليهم معيّته، ويخصّهم بها دون غيرهم.

يقول عز من قائل:

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}(١).

أما المعية التي تلوناها في قوله تعالى: **{إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}** فهي عامة لكل الناس، برّهم وفاجرهم، صالحهم وطالحهم، المؤمن منهم والكافر على حدٍّ سواء. إنّ هذه

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

المعية بمعنى المراقبة ولا يحدّه زمان أو مكان **{أَيْنَ مَا كَانُوا}**.

الكتاب الكاشف

إن كل ما في هذا الكون من البَرّ والبحر، والأرض والسماء، والرطب واليابس، في الظلام والنور، إنما هو في كتاب مبين كاشف عند الله سبحانه الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته إحصاء شيء.

{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(١).

إن هذا الكتاب محيط بكل شيء، يسجل كل حركة وسكون، ويحصي كل ما يجري، وهو حاضر عند الله تعالى، الرقيب على كل شيء.

---

(١) الأنعام: ٥٩.

ونحن يقصر علمنا عن كنه هذا اللوح الحافظ وحقيقة هذا الكتاب المبين، ولكننا نؤمن بوجوده وكشفه ورصده.

شهود الظاهر والباطن

ولا يقتصر أمر الشهود على الظاهر من حركات (الجوارح) المشهودة بالحس، وإنّما يشمل الباطن، وحركة (الجوانح)، كما يشمل عمل الجوارح، فهو ـ إذن ـ شامل لظاهر الإنسان وباطنه، وما يجترحهُ من الإثـمِ الخارجي، وما ينطوي عليه من الإثم الباطني.

ولا يختلف إثمٌ عن إثم، فإن إثم الباطن كإثم الظاهر، إن لم يكن أقبح منه.

وقد نهى الله عزّوجل عن الإثم، ظاهرهُ، وباطنه.

{وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}[1].

إن كل إثم ـ أظهره الإنسان أو استبطنه ـ يقع تحت رصد هذا الضوء الكاشف الذي يحصي أعمال الإنسان، ما ظهر

---

(١) الأنعام: ١٢٠.

منها وما خفي، حتى دبيب الوسوسة في نفسه.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}(١).

إن الوسوسة قد تزحف إلى الأعماق غير المرئية من نفس الإنسان، وقد تخفى على الإنسان نفسه، إلا إنها لا تخفى على الله الذي هو اقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ}(٢).

والإنسان له جهر يعلنه، وسرّ يكتمه، والله تعالى يعلم كلاًّ منهما، ولا يخفى على الله منهما شيء.

{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}(٣).

إن تمييز العين الخائنة من العين البريئة من أدق التشخيص والتمييز، وأدق من ذلك الاطلاع على (ما تخفي الصدور).

وإنّ بوسع الإنسان أن يفتح الخزانات المقفلة المحكمة

---

(١) ق: ١٦.

(٢) الأنبياء: ١١٠.

(٣) غافر: ١٩.

ويكتشف ما في اعماق الفضاء من الاجرام السماوية ولكن ليس في وسعه ان يعرف ما تخبؤه الصدور وما تخفيه.

بلى إن الله تعالى **{يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}**(١).

والإنسان ظاهر يعلنه وسرّ يخفيه عن الآخرين ومساحة ثالثة في ظلمات نفسه ودهاليزها تختفي حتى عن نفسه، وهو الأخفى من السر. (يعلم السرّ وأخفى).

والله تعالى يعلم ظاهر الإنسان وسره وما يخفى على الإنسان نفسه من الخواطر والرواسب التي تختزنه المساحات المظلمة من نفسه.

---

(١) طه: ٧.

الشهود في الآخرة

إنّ الشهود الذي تحدثنا عنه إنما هو في دار الدنيا، حيث يستر الله تبارك وتعالى الإنسان بستره الجميل، ويخفي من عوراته ما يشاء بلطفه ورحمته وتفضّله.

أما في الدار الآخرة فإن الإنسان يأتي إلى الحشر عارياً من كل ستر، مكشوفاً لجميع الخلائق، عاجزاً عن إخفاء أي شيء، **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ}**[1]. إلا ما ستره الله تعالى بستره الجميل.

انه اليوم الرهيب الذي يكشف سرائر الإنسان التي كانت مستورة عن غير الله تعالى. و هاهم الأنبياء والملائكة والناس وجميع الخلائق يطّلعون على عوراته التي كان الله تبارك وتعالى يسترها عليهم في دار الدنيا.

---

(١) الطارق: ٩ ـ ١٠.

الشهود الستة في الدنيا والشهادات الستة في الآخرة:

ستة من الشهود يخضع الإنسان لحضورهم ورصدهم وكشفهم في دار الشهود في الحياة الدنيا، ويشهدون له وعليه في الآخرة.

وأول هؤلاء الشهود: نفس الإنسان التي بين جنبيه، تحفظ له وعليه أعماله، ويلزمه الله تعالى بما تشهد عليه، فإذا جاء يوم القيامة أمرها الله تعالى أن يحاسب نفسه بنفسه. يقول تعالى:

{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[1].

والشاهد الثاني: هو جوارح الإنسان التي استخدمها في حياته، تسجل ما تقوم به من عمل وتضبط ما يصدر عنها، بكل دقة، ثم تشهد عليه يوم البعث بما أمرها به، ونفّذته.

---

(١) الإسراء: ١٣ـ ١٤.

يقول تعالى:

{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(١).

{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(٢).

والشاهد الثالث: الأرض وكل شيء عصى الإنسان به أو عليه ربه أو أطاعه به أو عليه. يقول تعالى:

{إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}(٣). وقد ورد في الروايات أن أخبار الأرض يومئذ هي أعمال الناس عليها.

---

(١) يس: ٦٥.

(٢) النور: ٢٤.

(٣) الزلزلة: ١ ـ ٦.

والشاهد الرابع: الملائكة، وهم يحصون على الإنسان كل ما يصدر عنه من قول أو فعل، خيراً كان أو شراً.

يقول تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**(١).

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}(٢).

{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}(٣).

والشاهد الخامس: الأنبياء وصالح المؤمنين الذين أشهدهم الله تعالى على أعمال الناس في الدنيا.

يقول تعالى: **{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء}**(٤).

---

(١) ق: ١٨.

(٢) الإنفطار: ١٠ـ ١٢.

(٣) الزخرف: ٨٠.

(٤) النحل: ٨٩.

{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}(١).

إن الأنبياء ^ يشهدون أعمال أممهم في الدنيا، ويشهدون لهم وعليهم في الآخرة.

ويتوقف أداء الشهادة في الآخرة على الشهادة في الدنيا.

والشاهد السادس: هو الله سبحانه وتعالى، المطّلع على السرائر والعالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ}(٢).

{وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}(٣).

الرقابة والمراقبة

وإذا علم الإنسان برقابة الله له، ورقابة غيره من الشهود

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) الأنبياء: ١١٠.

(٣) التوبة: ١٠٥.

بأذنه، وكان يشعر بخضوعه لرصد دقيق، وأنه ليس بإمكانه إخفاء شيء عنه، أصبح مراقباً لنفسه، انطلاقاً من الإيمان بان الله مطّلع عليه وعلى كل ما يصدر عنه، وحاضر معه أينما كان، ولا يخفى عليه من ظاهره وباطنه شيء.

وإنما يغفل الإنسان عن مراقبة نفسه عندما يشوب الخلل إيمانه برقابة الله تعالى وشهوده، فإذا آمن بحضور الله وشهادة غيره من الشهود الذين يأذن الله تعالى لهم بالإطلاع عليه فإنه سيكون دقيقاً في ضبط أعماله طبقاً لما تتطلبه هذه الشهادة.

إذن، الإيمان برقابة الله تعالى من أهم عوامل (المراقبة) في سلوك الإنسان.

الشهادة في الدنيا

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }[1].

للشهادة في القرآن مصداقان:

مصداق في الدنيا، ومصداق في الآخرة.

والذي يتأمل في آيات القرآن يجد أن القرآن يذكر الشهادة في سياقين مختلفين تماماً.

السياق الأول: الشهادة في الدنيا

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }.

{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء }[2].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) المائدة: ٤٤.

{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}[١].

ويأتي ذكر الشهادة في الآخرة في سياق آخر، يختلف تماماً عن السياق السابق.

{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}[٢].

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء}[٣].

وبالتأمل في السياقين نجد أن هذا السياق يختلف عن السياق الأول.

الشهادة في السياق الاول بمعنى قيمومة هذه الأمة على سائر الأمم والحضارات، وأنها قدوة ومقياس لسلوك سائر

---

(١) المائدة: ١١٧.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) النحل: ٨٩.

الأمم والحضارات، وأن رسول الله (ص) قدوة وقيم على هذه الأمة.

وأن الربانيين والأحبار قيّمون على ما استحفظوا من التوراة والانجيل.

وفي السياق الثاني الشهادة تأتي بالمعنى القضائي، فإن الأنبياء يتحملون الشهادة لأفعال أممهم في الدنيا، ويؤدون الشهادة لهم أن عليهم في الآخرة، ورسول الله (ص) يتحمّل الشهادة في الدنيا على أمته ويؤديها في الآخرة.

وكل منهما شهادة، ولكن معنى الشهادة يختلف في كل منهما، كما أن ظرف الشهادة أيضاً يختلف في القسم الأول من الآيات عن القسم الثاني.

وعليه لا نجد ما يبرّر انحصار الشهادة في الآخرة، كما يفهم ذلك من كلمات العلامة الطباطبائي & في تفسير الميزان في تفسير قوله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**}.

كما لا نجد وجهاً لما قد يستفاد من كلمات الشهيد المحقق الصدر & من انحصارها في الدنيا.

نعم يتضح من خلال مراجعة آيات القرآن: إن الشهداء في الدنيا هم الشهداء في الآخرة.

وسوف نبحث عن هذه النقاط إن شاء الله من خلال القرآن الكريم في هذه الدراسة.

والآن نتحدث عن: الشهادة في الدنيا.

الشهادة حضور ومراقبة وشهادة

الشهادة في الدنيا حضور الشهيد في ساحة المجتمع، ومراقبة أفكار الناس، وسلوكهم، من حيث الاستقامة والانحراف عن الفطرة، التي واثق الإنسان بها ربه سبحانه وتعالى، والتذكير، والشهادة، كلما وجد انحرافاً للإنسان عن هذا الخط.

موقع الشهيد «الموقع الوسط»

والموقع الذي يؤهل الشهيد، ليقوم بهذه الرسالة هو «الموقع الوسط».

فإن «الموقع الوسط» بين الاتجاهات الحضارية المختلفة المتطرفة المتعاكسة يمكّن الإنسان من رؤية ودرك هذه

الانحرافات ومراقبتها، والتنبيه عليها، والتذكير بها. والقرآن الكريم صريح في أن «الموقع الوسط» للشهيد هو الذي يؤهله لهذه الشهادة.

يقول تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**}.

وترتيب الشهادة في الآية على الموقع الوسط واضح، لا يحتاج إلى توضيح.

الإسلام هو الموقع الوسط

والموقع الوسط هو الموقع الفكري والحضاري المعتدل، المتوسط بين الاتجاهات الفكرية والحضارية المختلفة.

وهذا الموقع هو بالضرورة (الإسلام) الذي يضع الإنسان في موقع وسط ومعتدل بين الاتجاهات المتطرفة المختلفة والنابعة في الغالب من جهل الإنسان وانفعالاته، وردود الأفعال لديه، وضغوط البيئة والأهواء.

فان هذا الدين وسط بين النزعة الفردية القاضية بتحكيم هذه النزعة على المجتمع البشري، والنزعة الاجتماعية

القاضية بإقصاء النزعة الفردية، تماماً من الحياة الاجتماعية.

ووسط بين إرسال الغرائز وإطلاق العنان لها وبين كبحها وكبتها، وهذا الاتجاه هو تعديل الغريزة وتلطيفها وتوجيهها.

ووسط بين الاستغراق في الدنيا والعزوف عن الآخرة وبين الرهبانية ومقاطعة الدنيا.

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }(١).

{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً }(٢).

ووسط بين الإسراف والتقتير.

{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا }(٣).

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) البقرة: ٢٠١.

(٣) الإسراء: ٢٩.

تحديد «الموقع الوسط» بالوحي

لقد كان الإنسان يعيش بداية تاريخه هذا الموقع الوسط، بهداية الفطرة، قبل أن تتعقد حياته على وجه الأرض.

فلما تعقدت حياة الإنسان على وجه الأرض، لم تعد الفطرة كافية لتحديد الموقع الوسط، وكان لابد أن يتدخل الوحي لتحديد الموقع الوسط، وتوجيه الإنسان إليه.

إن الإنسان يعيش وسط تيارات متعاكسة وقوية ومؤثرة من ضغوط البيئة، والوراثة ونزوات الغريزة والانفعالات النفسية وردود الأفعال.

وهذه التيارات تؤثر بالتأكيد على تشخيص الإنسان وتقديره وحكمه وموقفه.

ومن المتعذر على الإنسان في مثل هذه الحالة أن يتمكن من تشخيص الموقع الوسط فكرياً، وحضارياً، وتشريعياً دون تدخل الوحي.

والآية الكريمة واضحة في دور الوحي في وضع الإنسان في هذا الموقع المعتدل.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}.

الموقع الوسط يمكّن الشهيد من الشهود

الميزة الأُولى من خصائص الموقع الوسط هي أن هذا الموقع يمكّن الشهيد من شهادة الانحرافات والأخطاء في سلوك الإنسان ومراقبتها، وبالتالي يمكّنه من التنبيه عليها والتذكير بها. فإن الإنسان عندما يكون في موقع حضاري وفكري وسط، يهيمن على كل الأطراف يتمكن من إدراك وشهود كل الانحرافات والتطرفات المتعاكسة في سلوك الإنسان.

فلا يكاد يشخّص الإنسان الانحراف انحرافاً إلا إذا كان في موضع الاستقامة، ولا يكاد يشخص الخطأ خطأً إلا إذا كان في موضع صحيح.

فالشهيد إذن يشهد على الناس أخطاءهم وإنحرافاتهم عن خط الفطرة **{لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}**.

وهذا هو معنى «الشهادة على الناس» فيما أرى، والله تعالى اعلم بما يريد وبما جاء في كتابه.

مرحلتا «التحمل» و«الأداء» في الشهادة

وللشهادة بالضرورة مرحلتان:

مرحلة التحمل والتقاط المشهد، ومرحلة الأداء.

والمرحلـــة الثانيـــة مـــن متطلبـــات المرحلـــة الأُولـــى ومسؤولياتها.

فلـو شـهد الشـاهد مشـهداً مـن مشـاهد الإجـرام، وتحمـل الشهادة لزمه أن يؤدي هذه الشهادة ويحرُم عليه كتمانها.

يقول تعـالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنـدَهُ مِـنَ اللّهِ}**[1].

أمّا مرحلة التحمل فقد تحدثنا عنها، فإن الشهيد بمـا مكنـه الله تعـالى ورزقـه مـن الموقـع الوسـط، يشـهد علـى النـاس أخطاءهم وانحرافاتهم عن خط الفطرة، وهي مرحلـة «تحمّـل الشهادة».

وأما مرحلة «الأداء» فتـأتي عقيـب مرحلـة التحمـل، وهـي

---

(١) البقرة: ١٤٠.

مسؤولية يتحملها الشهيد، حتى يؤديها، وأداؤها يكون إلى الناس، كما أن شهادته تكون على الناس أنفسهم. والأداء هنا يتم بالتذكير، والتوجيه، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتذكير في الغالب يتضمن تنبيه وإثارة الفطرة والعقول، عندما تتراكم عليها أنقاض الجاهلية والانحراف.

وهذا هو معنى العودة إلى الذات.

وقد كان الأمام الحسين عليه السلام يقول للناس في كربلاء: «عودوا إلى أنفسكم، وكونوا أحراراً في دنياكم». أي تحرّروا من أسر الهوى والطاغوت.

فلا يصيب الإنسان فساد وشر أكثر من أن ينفصل من نفسه، ويحجب عن قيمه وفطرته التي خلعها الله تعالى عليه.

مسؤولية الأداء

ومسؤولية أداء الشهادة مسؤولية شاقة وعسيرة.

ولقد كان الأنبياء ^ يشفقون على أنفسهم من هذه المسؤولية.

ولقد خاطب الله تعالى رسوله 2 بهذه الكلمة المؤثرة:

{طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْــكَ الْقُــرْآنَ لِتَشْــقَى }(١)، وقـد كـان رسول الله 2 يشفق من هذه المسؤولية، حتـى كانـت تسـلب من نفسه الراحة ومن شفتيه الابتسامة.

أرأيت من يرى أعمى قـد أشـرف علـى السـقوط فـي بئـر عميق، هل يقر له قرار؟ حتى ينبهه إلـى الخطـر الـذي يشـرف عليـه، ويحـذره، ويسـتخدم كـل الوسـائل الممكنـة لتنبيهـه وتحذيره من السقوط.

فكيـف إذا كـان الشـهيد يـرى البشـرية كلهـا علـى حافـة السقوط، كيف يقرّ لـه قـرار دون أن ينقـذ هـؤلاء جميعـاً مـن خطر السقوط.

وكان رسول الله 2 يقول: «شيبتني سورة هود».

عنـدما قيـل لـه 2 : «لقـد أسـرع إليـك الشـيب يـا رسـول الله»(٢).

وسورة هود تضع رسول الله 2 أمام تاريخ حافـل بـرفض

---

(١) طه: ١ـ٢.

(٢) مجمع البيان: ٥ ـ ١٤٠/٦؛ التفسير الكبير للرازي ١٨: ٧١.

النـــاس وعنـــادهم، ومكـــابرتهم، لـــدعوة الأنبيـــاء، وحـــرص الأنبياء ^ على إنقاذهم، ثم تخاطبه السورة بعد جولة طويلة من رحلة المعاناة بهذا الخطاب العسير:

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ}(١).

وكـــل شـــهيد يتحمـــل مـــن مســـؤولية الـــدعوة والأمـــر بالمعروف، بقدر ما يتحمل من الشهادة، وبقـدر مـا يمكنـه الله تعالى من تشخيص الانحرافات والأخطاء.

وحظّ الشهداء فـي ذلـك يختلـف، ومسـئوليتهم فـي الأداء كـذلك تختلـف. والشـهيد هنـا ينهض فـي المجتمـع البشـري بدور (المذكِّر) المسؤول وهذه هي الرسالة الأُولى للشهيد في حياة الناس.

الموقع الوسط يجعل من الشهيد قدوة

الميزة الثانية من خصـائص «الموقـع الوسـط»، أنهـا تجعـل من الشهيد «قدوة»، وميزاناً، ومعياراً يسـتطيع النـاس أن يقيسـوا

---

(١) هود: ١١٢.

به أنفسهم، ويصححوا به أخطاءهم، ويقوّموا به انحرافاتهم.

وهذه هي الرسالة الثانية للشهيد في حياة الناس.

فإن (الشهيد) بما يحتل في الحياة من الموقع الوسط، والاعتدال، والاستقامة، يصح أن يكون مقياساً وميزاناً يقيس به الآخرون أنفسهم، ويعرفون به الزيادة والنقصان في أفكارهم وسلوكهم.

فإن الزيادة على الموقع الوسط انحراف، كما إن النقيصة كذلك.

أرأيت الوحدات القياسية التي نقيس بها الأشياء، ونعرف بها وزنها وأبعادها، لنتمكن بذلك من سدّ النقص وإزالة الزائد.

فالشهيد هنا قدوةً، وأسوة، وميزان للناس، بما رزقه الله تعالى من الموقع الوسط. كما إن الشهيد فيما سبق معلّم للناس.

والقدوة الرسالة الثانية للشهيد ودوره الثاني في حياة الناس.

ونحن إذا أمعنا النظر في معنى القدوة ودورها، وجدنا كل

قدوة يشهد على الناس بأخطائهم وانحرافاتهم، وما فيهم من ميل وزيغ عن الحق، كما إن الوحدة القياسية تشهد على الكمية التي تقاس بها بالزيادة والنقيصة. وهذا هو دور تحمل الشهادة، وهو معنى دقيق يحتاج إلى إمعان نظر وتأمل.

وللقدوة دور آخر في أداء الشهادة، كما كان لها دور في تحمل الشهادة. فإن القدوة كما يشهد على الناس بأخطائهم وانحرافاتهم، وهذا هو دور تحمل الشهادة كذلك ينبههم بسلوكه وأفكاره إلى ضرورة التعديل والتصحيح لأفكارهم وسلوكهم.

والرسالة الثالثة للشهيد في حياة الناس هي إستحفاظ الكتاب والشريعة من الانحراف وهذا هو دور أداء الشهادة.

لئلا يكون للناس على الله حجة

وفيما قدمناه من توضيح وشرح لدور الشهداء، نجد أن الأنبياء يقطعون في الدنيا كل حجة للناس على الله تعالى.

فإن الناس يمكن أن يتشبثوا يوم القيامة بحجتين. وإرسال الرسل والأنبياء يقطع على الناس تلك الحجتين.

فلهم أن يحتجوا على الله بأنهم كانوا يجهلون هـذا الهـدى والمنهاج الرباني في حياتهم، ولـم يصـلهم مـن الله تعـالى مـن يدعوهم ويذكّرهم به. ولهم أن يحتجوا ثانياً بان هـذه الـدعوة وهذا المنهاج كان اكثر مما يطيقون، وإرسال الأنبياء من نـوع الإنسـان، ولـيس مـن نـوع الملائكـة يقطـع علـى النـاس كـلا العذرين، ويقطع كلا الحجتين.

يقول تعالى: {**رُّسُلاً مُّبَشِّـرِينَ وَمُنـذِرِينَ لِـئَلاَّ يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُـلِ وَكَـانَ اللّـهُ عَزِيـزاً حَكِيمًا**}[1].

(١) النساء: ١٦٥.

شرح وتفصيل

لرسالة الشهداء في حياة الناس

وفيما يلي نتحدث عن المهام الأساسية الثلاث للشهيد وهي:

١ ـ التذكير.

٢ ـ القدوة.

٣ ـ إستحفاظ كتاب الله وشريعته عن التحريف.

١ـ التذكير

الرسالة الأُولى للشهيد التذكير. يقول تعالى:

{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً}(١).

رسالة الأنبياء: «أن يدعوا الناس إلى العودة إلى أنفسهم»، كما كان الإمام الحسين عليه السلام يخاطب الناس في كربلاء: «عودوا إلى أنفسكم».

وأنفسهم هي فطرتهم وعقولهم وضمائرهم، التي يسلخها عنهم الهوى والطاغوت والشيطان.

إن في نفس الإنسان كنوزاً من القيم والمعرفة واليقين والاستجابة لله، ورصيداً كبيراً من الفطرة الصافية النقية، ومهمة الشهداء الوصول إلى هذه الكنوز.

إن هذه الأُمّة التي انطلقت من قلب الصحراء في جزيرة العرب، واستطاعت أن تهزم أكبر إمبراطوريتين في التاريخ في مدة يسيرة في عمر التاريخ... ولم تتمكن من إنجاز هذه

---

(١) المزمّل: ١٩، الإنسان: ٢٩.

الفتوحات بقوة عسكرية نظامية متفوقة ولا بالمال، وإن كان لابد لهذه الدعوة من هذا وذاك معاً، ولكن الأُمّة الشاهدة التي انطلقت من قلب الصحراء إستطاعت أن تخاطب ضمائر الناس، وفطرتهم التي صدها عنهم الطاغوت.

وفتحت هذه الأُمّة الشاهدة الطريق إلى فطرة الناس وضمائرهم التي حاول الطاغوت في هاتين الإمبراطوريتين أن يطمرهما ويهدمهما، واستجاب الناس في كل من هاتين الإمبراطوريتين إلى دعوة هؤلاء الفاتحين الذين جاءوهم برسالة العودة إلى أنفسهم.

إن لنا نحن الدعاة إلى الله رصيداً من الفطرة في أعماق نفوس الناس، ومهمتنا الوصول إلى هذه الأعماق، فإذا استطعنا أن نصل إلى كنوز الفطرة، فإن الناس يستجيبون لدعوة الله أفواجاً وأفراداً.

ونحن لا ننفي ولا ننكر أن الفطرة والضمير قد يجفان وينضب معينهما تماماً، وقد يطمرهما الهوى والطاغوت والشيطان تماماً، فتنعدم الفطرة، وينعدم الضمير، كما حدث ذلك في قوم نوح عليه السلام: **{وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى**

الأرض مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا }[1].

ولكن الله تعالى قد أودع في فطرة الإنسان وضميره وعقله من القوة ما يمكّنه من المقاومة أمام ضغوط الهوى والشيطان والطاغوت، ردحاً طويلا من الزمن، فإذا تمكن الدعاة إلى الله أن يصلوا إلى نفوس الناس، واهتدوا الطريق إلى فطرتهم وضمائرهم برفق ولين، فان الله تعالى يفتح عليهم من قلوبهم ما أغلقه الهوى والطاغوت.

بين (الميثاق) و (الشهادة)

ما هي الرسالة التي يحملها الشهداء والأمة الشاهدة إلى فطرة الناس؟ إن هذه الرسالة هي العودة إلى «الميثاق».

إن في فطرة كل إنسان عقداً وميثاقاً مع الله تعالى، والتزاماً بالعبودية والطاعة، ولا يشذ إنسان عن هذا الميثاق الفطري. وقد شرحنا هذا الميثاق من قبل في تفسير قوله تعالى: **{وَإِذْ**

---

(١) نوح: ٢٦ ـ ٢٧.

أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى} في كتاب مستقل.

وكل إنسان يرتبط في عمق فطرته بهذا العهد والميثاق مع الله تعالى عن وعي والتزام وتعهد.

إلا إن العوامل الضاغطة على الإنسان تتمكن من إخماد جذوة الفطرة وإضعافها وطمرها أحيانا، فتختفي الفطرة من حياة الإنسان، وينسى الإنسان هذا الميثاق، ويغفل انه شهد على نفسه بين يدي الله بهذا الميثاق، {**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ**}. فيأتي دور الشهيد والأُمّة الشاهدة في إعادة الناس إلى ميثاق الفطرة، وتنبيههم إلى هذا الميثاق الذي عقدوه مع الله تعالى بوعي الفطرة ثم نسوه وأهملوه.

وإلى هذه العلاقة بين الشهادة والميثاق يشير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«فبعث الله فيهم رسله وواتر أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن عقولهم».

وإنما يتمكن الشهداء من معرفة فطرة الناس، وما أودع الله تعالى في نفوسهم من الوعي الفطري العميق بمقتضى الموقع الذي يحلون فيه، فإنّ هذا الموقع الوسط يمكّنهم من شهود الفطرة، وما أودع الله تعالى فيها من الوعي الفطري وميثاق الطاعة والعبودية لله تعالى، ومن شهود الانحراف الذي طرأ على هذه الفطرة بعد وعي وعهد وميثاق.

وهذا الشهود يحمّلهم كما ذكرنا مسؤولية تنبيه الناس وتذكيرهم بهذا الوعي وهذا الميثاق.

إن العودة إلى الله تعالى حاجة حقيقية في نفس كل إنسان، كما إنّ الأكل والشرب والنوم حاجة للإنسان، فلا يحتاج الإنسان إلى إكراه وضغط ليأكل أو يشرب أو ينام بقدر حاجته الطبيعية، ولكن قد يحتاج الإنسان إلى من ينبهه بموعد الأكل والشرب والنوم، كذلك (الدين) والعودة إلى الله حاجة فطرية مركوزة في عمق النفس، فلا يحتاج الإنسان لكي يعود إلى الفطرة إلى إكراه أو ضغط، وهو معنى قوله

تعالى، والله أعلم: {**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**}(١).

ولكن الإنسان يحتاج إلى من ينبههُ ويذكِّرهُ بالله تعالى، وهذه هي المهمة الأولى للشهيد والأُمّة الشاهدة في التاريخ.

التذكير رسالة الأنبياء في التاريخ:

إن القرآن الكريم صريح في أن رسالة الأنبياء ^ في التاريخ هي التذكير أولاً، ثم بعد ذلك التعليم، وأن مهمة التذكير قبل التعليم.

وقد ورد التصريح بهذه الحقيقة في سورتين من أوائل ما أُنزل على رسول الله 2 من القرآن بعد تكليفه بالرسالة وهما سورة «المدّثّر» و «المزّمّل».

يقول تعالى: {**كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ**}(٢).

{**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**}(٣).

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) المدّثر: ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩.

{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}(١).

{وَجَــاءكَ فِــي هَــذِهِ الْحَــقُّ وَمَوْعِظَــةٌ وَذِكْــرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}(٢).

ويأمر الله نبيه 2 بالتذكير، ويصرح له بأنه مذكِّر قبل كل شيء، بل يذكره الله تعالى بأن مهمته الوحيدة هي التذكير، وسائر المهام التي ينهض بها وتجب عليه، إنّما هي من شؤون التذكير.

وهذه الحقيقة تتضح في الحصر الوارد: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ}**(٣)، والقرآن الكريم «ذِكر» أكثر من أي شيء آخر، أو إنه ذكر فقط، والمسائل الأخرى التي يحفل بها كتاب الله من متطلبات الذّكر ومستلزماته.

يقول تعالى: **{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ}**(٤).

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) هود: ١٢٠.

(٣) الغاشية: ٢١.

(٤) يس: ٦٩.

{هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}[١].

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[٢].

{وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}[٣].

ومهمة القرآن الكريم ورسالته هي التذكير وتيسير التذكير:

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[٤].

وهذه الآية تتضمن سرّاً من أسرار إعجاز القرآن، فإن القرآن ميسّر للذكر والتذكير. ومن يقرأ القرآن يعرف هذه الحقيقة، ولا نعرف كتاباً يحمل هذه القدرة العظيمة للتذكير.

{وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}[٥].

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ}[٦].

---

(١) ص: ٤٩.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) الأنبياء: ٥٠.

(٤) القمر: ١٧و٢٢و٣٢و٤٠.

(٥) الحاقة: ٤٨.

(٦) الإسراء: ٤١.

ويقول الله تعالى لنبيِّـه الكـريم إنـه لـم ينـزّل عليـه القـرآن ليشقى بجحود الناس وعنادهم، ولجاجهم، وإنما بعثه بـالقرآن ليـذكرهم بـه فقـط، ومـا عليـه بعـد ذلـك مـن أمـرهم شـيء استجابوا أم لم يستجيبوا.

{طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاّ تَذْكِرَةً لِّمَـن يَخْشَى }(١).

الاستجابة والانغلاق على التذكير

وللناس تجاه التذكير حالتان:

حالة الاستجابة والانفتاح، وحالة الانغلاق والصدود.

وفيما يلي نتحدث عن هاتين الحالتين:

أولا: حالة الاستجابة والانفتاح

إن مـن النـاس مـن يسـتجيب للـذكرى مـن دون صـدود وإعـراض، ويفـتح قلبـه علـى الأنبيـاء والشـهداء، ويتلقـى الذكرى، ويتفاعل معها.

---

(١) طه ١ـ٣.

وهؤلاء هم أصحاب القلوب الواعية الذين لم يتمكن الشيطان من قلوبهم ولم يصدهم عن ذكر الله، ولم تنغلق قلوبهم عن ذكر الله، ولم يتمادوا إلى الإعراض عن الله.

وتعبير القرآن عن الذين يستجيبون والذين لا يستجيبون للذكرى دقيق وحريّ بالتأمل والتفكير.

يقول تعالى عن الذين يستجيبون للذكرى:

{تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}(١).

والإنابة هي العودة.

وكل عودة يسبقها بُعد وغفلة، ولكن عندما يكون البعد والغفلة والتخلف عن الاستجابة والطاعة من غير عمد ولا صدود ولا لجاج، فإن صاحبه يعود بالذكرى سريعاً، ويستجيب.

يقول تعالى: **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}**(٢).

---

(١) ق: ٨.

(٢) الحاقة: ١٢.

وتعبير القرآن دقيق «أُذن واعية»، أما الآذان الصماء فلا تعي ولا تدرك، ولا تنفعها التذكرة، وكيفما تكون الذكرى، ومهما كان المذكّر.

يقول تعالى: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**(١).

ذكرى لمن كان له قلب، أما من مسخ قلبه مسخاً، فلا تنفعه الذكرى. وذكرى لمن ألقى السمع. إمّا من صدّ سمعه، فلا تنفعه الذكرى.

وذكرى لمن كان شهيداً حاضراً، أما من كان غائباً بروحه وعقله وحاضراً بجسمه فقط فلن تنفعه الذكرى.

والشهيد هنا من الشهود والحضور. وهو الشهيد (المتذكِّر) في مقابل الشهيد (المذكّر).

يقول تعالى: **{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}**(٢).

---

(١) ق: ٣٧.

(٢) الذاريات: ٥٥.

والمؤمنون في مقابل أهل الجحود والفكر المعرضون عن الله.

وهؤلاء المؤمنون يستجيبون للذكرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله تعالى. {**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**}(١).

ثانياً: حالة الانغلاق والصدود

وفي مقابل حالة الانفتاح والاستجابة والإنابة نواجه حالة مرَضيّة هي حالة الانغلاق والجحود والصدود والإعراض عن الله تعالى. وهؤلاء لا تنفعهم الذكرى.

يقول تعالى عن هذه الطائفة: {**وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ**}(٢).

ويواجهون الذكرى والتذكير بالإعراض والصدود. يقول تعالى:

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الصافات: ١٣.

{وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ}(١).

{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}(٢).

وهؤلاء المعرضون يعاقبهم الله تعالى بأشد العقاب، ويجعل معيشتهم في الدنيا ضنكاً، ويحشرهم يوم القيامة عمياناً لا يرون شيئاً، كما تعاموا في الدنيا عن ذكر الله تعالى. يقول تعالى: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}**(٣).

الإعراض عن الله عن علم وعن غير علم

وحالات الإعراض عن الله تعالى على طائفتين:

فمن حالات الإعراض والضلال، واتِّباع الباطل والهوى ما يكون من دون علم ولا هدى.

---

(١) الشعراء: ٥.

(٢) المدثر: ٤٩.

(٣) طه: ١٢٤.

يقول تعالى: {**بَلِ اتَّبَعَ الَّـذِينَ ظَلَمُـوا أَهْـوَاءهُم بِغَيْـرِ عِلْمٍ**}[١].

وهذا نوع من الإعراض عن الله واتباع الهوى يتم مـن دون علم، ومن دون هدى.

والحالـة الأُخـرى مـن الإعـراض، أسـوأ مـن هـذه الحالـة، وأبعد عن الله، وأكثر انغلاقا وصدوداً عن ذكـر الله، هـي التـي يعرض فيها صاحبها عن الله، بعد أن جاءهُ العلـم، بغيـاً وظلمـاً، وبعد أن استيقنتها أنفسهم. يقول تعالى: {**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاّ مِـن بَعْدِ مَـا جَـاءهُمُ الْعِلْـمُ بَغْيًـا بَيْـنَهُمْ**}[٢]، ويقـول تعـالى: {**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَـلَّهُ اللَّـهُ عَلَـى عِلْـمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَـاوَةً فَمَـن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**}[٣].

---

(١) الروم: ٢٩.

(٢) الشورى: ١٤.

(٣) الجاثية: ٢٣.

ويقول تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}(١).

عقوبة الإعراض عن ذكر الله

وعقوبة هؤلاء من سنخ الجريمة. إن الجريمة هي الإعراض عن الله، والتصامم، والتعامي عن ذكر الله وآياته، والعقوبة هي الإضلال والختم والإغفال.

يقول تعالى: {أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}، وهو انعكاس دقيق للجريمة.

يقول تعالى: {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}(٢).

والإغفال عقوبة من يتغافل عن ذكر الله ويتبع هواه. وهي عقوبة تطابق الجريمة. و(الفرط) من الإفراط، وهو الخروج والتجاوز عن حدود الله تعالى، وحقوقه، كحبات القلادة التي

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) الكهف: ٢٨.

تنفرط، وتتناثر، وتخرج عن مواقعها ونظمها، كذلك الإنسان عندما يتبع هواه ينفرط أمرهُ كله: عقله، وضميره، وقلبه، ووعيه، ودينه، ويختل تعادله وتوازنه.

ومن عقوبة الذين يُعرضون عن ذكر الله، ويتعامون عن آيات الله، أن يحشرهم الله يوم القيامة عمياناً، كما تعاموا في الدنيا من آيات الله، ويجعل معيشتهم في الدنيا ضنكاً، وهما عقوبتان من سنخ الجريمة.

يقول تعالى: {**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**}[1].

ومن عقوبة المعرضين عن ذكر الله، أن يقيِّض الله تعالى

---

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٧.

لهم شيطاناً ويجعله قريناً لهم، ذلك انهم مكّنوا الشيطان من أنفسهم، فتلك أيضا عقوبة من سنخ الجريمة التي ارتكبوها. يقول تعالى:

{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}(١).

والذي يُضِلُّه الله تعالى ويغفل قلبه فلا هاديَ له **{وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}**(٢).

وهذا الضلال الذي يلزم الإنسان إجباراً، ولا علاج له، عقوبة وجريمة وليس بجريمة فقط ولكن العقوبة هنا من سنخ الجريمة.

ولأن هذه العقوبة إلزامية، ولا علاج لها، يأمر الله تعالى نبيه بالإعراض عنهم. يقول تعالى:

{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ

---

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) الزمر:٢٣و٣٣و٣٦، غافر: ٣٣ .

الدُّنْيَا }(١).

والإلزام في العقوبة لا ينافي الاختيار.

فإن هذه العقوبة نتيجة لما اختاروا من العناد والشقاق والنفاق بعد أن أتم الله تعالى لهم الحجة وجاءتهم البيِّنات.

يقول علماء الاصول: الاضطرار بالاختيار لا ينافي الاختيار.

عوامل الإعراض والصدود

نذكر منها عاملين يذكرهما القرآن الكريم:

الأول: الشيطان.

يقول تعالى: {**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**}(٢).

{**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**}(٣).

والشيطان يصدّ عن ذكر الله {**وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ**

---

(١) النجم: ٢٩.

(٢) يوسف: ٤٢.

(٣) المجادلة: ١٩.

اللّهِ }[١].

والثـاني: الانغمـاس، والاسـتغراق فـي متـاع الحيـاة الـدنيا ولذّاتها.

{وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَـانُوا قَوْمًـا بُورًا }[٢].

وساعات اليسر والرفاه تُنسي الإنسـان ذكـر الله، وبـالعكس فإن ساعات الشـدة والعسـر تـذكّر الإنسـان بـالله تعـالى. يقـول تعالى:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِـهِ اذْكُـرُواْ نِعْمَـةَ اللّـهِ عَلَـيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آل فِرْعَوْنَ }[٣].

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْـصٍ مِّـن الثَّمَـرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }[٤].

---

(١) المائدة: ٩١.

(٢) الفرقان: ١٨.

(٣) إبراهيم: ٦.

(٤) الأعراف: ١٣٠.

أسلوب التذكير

مفتاح قلوب الناس اثنان:

الصدق والرفق.

والكلام عندما يصدر من الإنسان عن صدق، ويكون صاحبه مؤمناً بما يقول، وعاملا بما يقول، فإن لكلامه حينئذ في النفوس تأثير وفعل ما ليس لغيره. فإن الكلام عندئذ يصدر من عمق النفس، ويحمل معه قناعة صاحبه، وإيمانه، وتفاعله معه. والكلام عندما يحمل معه قناعة صاحبه وإيمانه وتفاعله معه، يكون له من التأثير ما ليس للكلام الذي يصدر عن سطح ضحل من سطوح النفس، ودون أن يكون له عمق وامتداد في نفس الإنسان.

ولأمر ما ينهانا الله تعالى أن نقول ما لا نفعل: يقول تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}**[١].

---

(١) الصف: ٢ ـ ٣.

و(**الرفق**) المفتاح الآخر من مفاتيح النفس.

والذين آتاهم الله تعالى مفتاح الرفق، يحسنون النفوذ بالتذكير والموعظة إلى القلوب، وتلين لهم القلوب الصعبة، وتستجيب لهم القلوب النافرة.

ومهمة الوعظ ترقيق القلوب فإذا رقت القلوب استجابت للتذكير، وانفتحت على ذكر الله، وأقبلت على الله تعالى، أمّا عندما تعشو القلوب فلا تستطيع الذكرى أن تنفذ إليها.

فلابدّ للمذكّرين بالله، والدعاة إلى الله لكي يهتدوا إلى قلوب الناس، أن يرفقوا بقلوب الناس، ويتخيروا من أساليب الوعظ والتذكير أرقها وأكثرها ليناً ورفقاً، ويتجنبوا الشدّة والقسوة في الكلام، فإن القلوب تستجيب للرفق، وتصد عن الشدة. ولهذا السبب يجب أن لا نحمِّل الناس في الوعظ والتذكير ما لا يتحملون وما لا يعرفون.

وعن رسول الله 2 : «إنّا أُمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس بقدر عقولهم. أمرني ربي بمداراة الناس، كما أمرَنا

بإقامة الفرائض»(١).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «خالطوا الناس بما يعرفون، ودعوهم مما ينكرون»(٢).

وعن الإمام الرضا عليه السلام ليونس K : «يا يونس حدّث الناس بما يعرفون، وأتركهم مما لا يعرفون»(٣).

ومن الرفق: الاعتدال في الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ألا أخبركم بالفقيه حقاً: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ومن لم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يرخص في المعاصي»(٤).

الرفق والعنف في الإسلام

إن الرفق والعنف وجهان لحركة الدعوة على وجه

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٦٩.

(٢) بحار الأنوار ٢: ٧١.

(٣) رجال الكشّي: ٤٨٧.

(٤) وسائل الشيعة ٤: ٨٣٠.

الأرض، ومن دون أن يقترن هذان الوجهان لا تتمكن هذه الدعوة أن تشق طريقها إلى قلوب الناس على وجه الأرض، عبر العقبات والعوائق التي يزرعها ويضعها الطاغوت أمام حركة الدعوة.

والوجه الأول لهذه الحركة، الرفق واللين في دعوة الناس إلى الله تعالى، تذكيرهم بالله واليوم الآخر **{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**(١).

{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}(٢).

{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}.(٣)

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) القصص: ٥٥.

{وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}(١).

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}(٢).

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}(٣).

هذا هو الوجه الأول من حركة الدعوة وهو وجه الرفق واللين.

والوجه الآخر وجه يختلف تماماً عن هذا الوجه. وهو

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) فصّلت: ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) النازعات: ١٧ ـ ١٩.

وجه العنف والشدة. ولنقرأ بعض ملامح هذا الوجه الآخر في كتاب الله تعالى:

يقول تعالى:

{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ}(١)

{فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ}(٢).

{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ}(٣).

وهذا هو الوجه الآخر لحركة الدعوة وهما وجهان متكاملان وليسا وجهين متناقضين. إن الوجه الأول هو الذي تواجه به الدعوة الناس من حركتها على وجه الأرض فلا يُقبل الناس على هذا الدين إلا بالرفق واللين، ولا تكسب الدعوة قلوب الناس، ولا تنفذ إليها إلاّ بالرفق واللين، والتفاهم، والحكمة، والموعظة الحسنة. ولكن الطاغوت لا

---

(١) البقرة: ١٩١.

(٢) النساء: ٩١.

(٣) الأنفال: ٥٧.

يـدع هـذه الـدعوة تتحـرك علـى وجـه الأرض بـين النـاس لتكسـب قلـوب النـاس وقناعـاتهم، وإنمـا يحـاولُ أن يضـع العقبات والعوائـق علـى مسـيرة الـدعوة، ويصـد النـاس عنهـا، ويفتنهم ليتخلوا عنها، ويعمل على أن يحول بـين النـاس وبـين رسالة الله تعالى.

ولكي تواصل الدعوة حركتها على وجه الأرض، لابـد أن تدافع عن نفسها، وعن الناس الذين تطلبهم، ولا بد أن تواجـه العقبات والفـتن التـي يزرعهـا الطـاغوت علـى طريـق حركـة الدعوة بالقوة، والشدة، والعنف.

ولا يكاد ينفع هنا الرفـق والإحسـان. فـإن لغـة الرفـق تنفـع الناس وتكسبهم إلى جانب الدعوة، أما هؤلاء الـذين يريـدون الكيد بالدعوة وبالناس بالعنف والمكر، فلا ينفـع معهـم إلا رد القـوة بـالقوة والعنـف بـالعنف، ورد الكيـد بالكيـد، والمكـر بالمكر، والشدة بالشدة.

وهذا هو الوجـه الآخـر للـدعوة، ومـن دون هـذا الوجـه لا تستطيع الدعوة أن تواصل حركتها على وجه الأرض.

ولكـن علينـا أن نعـرف جيـداً أن الوجـه الأخيـر مـن دون

الوجه الأول لا يشق طريقاً للدعوة، ولا يفتح قلوب الناس.

وان الذي كسب الناس للإسلام، في الفتوحات الإسلامية العسكرية في صدر الإسلام، ليس القوة والسيف، وإنما الرفق واللّين، واستخدم المسلمون القوة فقط لكسر شوكة الطاغوت وإزالة العقبات من أمام حركة الدعوة، والدفاع عن المستضعفين والمظلومين في مقابل الطغاة والظالمين.

٢ـ القـدوة

المهمة الثانية للشهيد في الحياة الدنيا تجسيد القدوة.

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[1].

الشهيد (مذكِّر) و (قدوة)

قلنا أن الدور الأول للشهيد: التّذكير. ورسالة التـذكير هـي الدعوة إلى الله، والتذكير به، والدعوة إلـى (الموقع الوسـط)، تذكيراً وتعليماً.

والـدور الثـاني للشـهيد: تجسـيد القـدوة للنـاس، للإقتـداء والتأسي. وفـي الرسـالة الثانـية لا يـدعو الشـهيد إلـى الموقـع الوسـط، وإنما يجسد بسلوكه الموقع الوسط.

والقـدوة هـو الـذي يجسـد (الموقـع الوسـط) فـي سـلوكه وسيرته فـلا يشـذّ عـن الموقـع الوسـط فـي قـول أو فعـل، ولا

---

(١) الممتحنة: ٦.

ينحـرف، ولا يشـطّ، ولا يقصّـر، ولا يزيـد. ويجـد النـاس فيـه تبلوراً واقعياً وحقيقياً للموقع الوسط.

والقدوة بهذا التصوّر تعني المـرآة التـي يجـد الإنسـان فيـه نفسه وما أودع الله فيه من كنوز اليقين، والمعرفـة، والتوحيـد، والقيم، والجد والعزم، والشجاعة والمقاومة، والحب.

ويرى الإنسان في (القدوة) كل مـا أودع الله فيـه مـن هـذه الكنوز، فهو من سنخ خلقه، إنسان يمشـي فـي الأسـواق، فمـا يجد في القدوة من المعرفة والقيم والكفاءات موجـود عنـده، غيـر أن (القـدوة) تمكّـن أن يبرزهـا إلـى الفعـل ويخرجهـا إخراجاً حسناً، وهو لم يفعل ذلك.

ولو كان الأنبياء من الملائكة، لما وجد الإنسان فيهم مرآة صـادقة لنفسـه، وقـد كـان المشـركون يسـتنكرون أن يكـون الرسول من نوع البشر، يأكـل الطعـام، ويمشـي فـي الأسـواق، ويطلبون أن يكون الرسول من غير البشر، من الملائكة، مثلا.

ويرد عليهم القرآن الكريم رداً بليغاً: يقول تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْـوَاقِ وَجَعَلْنَـا بَعْضَـكُمْ لِـبَعْضٍ فِتْنَـةً

أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا }(١).

{وَقَالُوا مَال هَذَا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاق لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا }(٢).

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ }(٣).

والردُّ واضح، فإن الملك لا يكون قدوة للإنسان، ولا يكون مرآة تعكس له شخصيته وقيمته وكفاءاته.

وبالنتيجة لا يعكس له ما ينبغي أن يكون، ولا يعكس له مقدار تخلفه وتقصيره.

أما القدوة (الإنسان) فيصلح أن يكون مرآة للناس،

---

(١) الفرقان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) الفرقان:٧.

(٣) الأنعام: ٩.

تعكس لهم أنفسهم، وتعكـس لهـم مـا ينبغـي أن يصـلوا إليـه ويحققوه، وتعكس لـه مقدار تخلفهم وعجزهم، وتنبـه النـاس إلى ضرورة تدارك أخطاءهم وجبـر نقـاط الضـعف والـنقص فـي سـلوكهم، وتعـديل أفكـارهم، وأعمـالهم، بموجـب مـا تعكسه هذه المرآة.

أسلوبان في الدعوة

هناك فرق واضح بين أسلوب الشهيد في الـدعوة إلـى الله، والأسلوب الذي يتخذه غير الشهداء من عامة الناس إلى الله.

فمن الدعاة من يدعو الناس إلى الموقع الوسط ويرشـدهم إليـه. أمـا الشـهيد (القـدوة) فلمـا كـان يجسـد بأقوالـه وأفعالـه الموقـع الوسـط فهـو يأخـذ النـاس معـه إلـى الموقـع الوسـط. والناس ـ على طريق الله ـ ينجذبون إلى من يقول لهـم: هلمـوا معي إلى الله، اكثر مما ينجذبون إلى من يقول لهم اذهبوا إلـى الله.

وكانت دعوة الإمام الحسينعليه السلام مـن النـوع الأول، يـدعو الناس إلى مواجهة الظالمين، ويتقدمهم وأهـل بيتـه وذراريـه،

فكان يقول لهم: «نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم»(١).

يقول الكاشاني في كتابه: الصافي في تفسير القرآن:

وكان أصحاب الحسين عليه السلام إذا أرادوا الخروج استأذنوا الحسين عليه السلام وقالوا: السلام عليك يا بن رسول الله، فيرد عليهم السلام، ويقول لهم: نحن على الأثر قادمون، ثم يقرأ قوله تعالى: **{فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}**(٢).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام عن حروبه مع رسول الله 2 : «كنا إذا احمرَّ البأسُ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يكن أحد منا اقرب إلى العدو منه»(٣).

وفي حرب الأحزاب كان رسول الله 2 بنفسه يحفر ويحمل التراب من الخندق ويقول: «لا عيش إلا عيش

---

(١) إحقاق الحق ١١: ٦٠٩؛ وقعة الطف: ١٧٢.

(٢) تفسير الصافي ٦: ٣٢ عن مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٢٥٠.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار.

الآخرة»(١).

وإذا كان 2 مع أصحابه في سفر، وكانوا يوزعون الأعمال فيما بينهم قال: «وعليٌّ جمع الحطب»(٢).

وهذا هو الفرق بين الشهيد وغيره، إن الشهداء من الأنبياء والأوصياء والعلماء والدعاة إلى الله يجسدون الموقع الوسط، يأخذون الناس معهم إلى هذا الموقع، أما غير الشهيد من العلماء والدعاة، فيدلون الناس على الطريق، ويدعون الناس إلى الأعمال الصالحة.

ولذلك دعوة الشهيد لا تضاهيها دعوة، ولا حركة، ولا يكون لغير الشهيد من التأثير والنفوذ في حياة الناس، ومن القدرة على تغيير مجرى التاريخ ما يكون للشهداء. وفي سير علمائنا الشهداء نجد نماذج كثيرة من أمثال هؤلاء، ممن كانوا يجسدون المقاومة والثبات والصبر في البأساء والضراء، قبل أن يدعوا الناس إليها. وقد كان شيخ الشريعة

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ٢١٨ و٢٣٨.

(٢) سفينة البحار ١: ٤١٦.

الأصفهاني (رضي الله عنه)يحضر بنفسه القتال مع الإنكليز، وهو في سن متقدم من الشيخوخة، وكان يعسكر مع عساكر المجاهدين ويسير معهم، وكان القائد العثماني التركي يقول: كلما أرى خيمة شيخ الشريعة المتواضعة في وسط المعسكر أزداد قوة وطمأنينة وثقة.

وقد أنقلب به القارب في النهر. وكاد أن يغرق، لو لا أن أنقذه بعض المجاهدين من الغرق.

اهتمام القرآن بالقدوة

وللقرآن اهتمام بليغ في طرح القدوة للناس من الأنبياء والشهداء.

يقول تعالى عن رسول الله 2 :

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}(١).

ويقول تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام:

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

(١) الأحزاب: ٢١.

مَعَهُ}[١].

ويقول تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}**[٢].

وبعكس ذلك، يشجب القرآن الحالات التي ينفصل فيها الفعل عن القول، ولا يكون الكلام نابعاً من إيمان وتفاعل وعمل.

يقول تعالى: **{لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}**[٣].

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الممتحنة: ٦.

(٣) الصف: ٢ ـ ٣.

التأهيل للشهادة

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[1].

وكل إنسان يمكن أن يكون شهيداً، لكن الشهادة ليست بالأماني.

وإن التأهيل للشهادة من أشق الأمور. ذلك إن الشهادة ليست هي رؤية الموقع الوسط فقط، وإنما هي الحضور في الموقع الوسط.

وحضور الموقع الوسط يتطلب من الشهيد الثبات والمقاومة، ومن دون الثبات لا يتمكن الإنسان من مواصلة حضور الموقع الوسط لأن الموقع الوسط بطبيعته يضع الإنسان عند ضغوط كثيرة ومتعاكسة، ولا يتمكن الإنسان من البقاء في هذا الموقع، إلا إذا كان يملك ويمارس درجة عالية من المقاومة والثبات.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

ولا يمتلك الشهيد هذه الدرجة العالية من المقاومة والثبات إلا بعد المرور بدورة شاقة وعسيرة من الابتلاء والمعاناة.

فإن الابتلاء والمعاناة والصبر عليها يؤهلان الإنسان لهذه الرسالة.

ولأمر ما نجد أن الله تعالى يعرض الأُمّة الشاهدة، والشهداء من الدعاة لمحن وابتلاءات وعذاب طويل، فإذا أتمّوا كلمات الابتلاء أولاهم مهمة الشهادة في الناس، واتخذ منهم شهداء. يقول تعالى:

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.

إن الأُمّة الشاهدة لا تثبت على طريق الدعوة، ولا تستطيع أن تقاوم عواصف المواجهة المتعاكسة، وألوان المكر والكيد، إلا عبْر معاناة صعبة، ورحلة عذاب طويلة. وهذه المعاناة والعذاب تؤهلها للشهادة على الناس، وتدخلها الجنة. يقول تعالى:

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ

خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}(١).

المقاومة والرؤية

إن المعاناة تمنح الإنسان المقاومة، والمقاومة تمنح الإنسان الرؤية. يقول تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**(٢).

والآية الكريمة صريحة في أن الجهاد يمنح الإنسان الهداية والرؤية، كما يمنحه معية الله تعالى في الحركة على طريق ذات الشوكة: **{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**.

والعكس أيضاً فإن الجهاد يأتي نتيجة لرؤية ربانية صافية، والعلاقة بين الجهاد والرؤية من العلاقة التبادلية التي تكثر نظائرها في الثقافة الإسلامية.

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

٣ـ إستحفاظ كتاب الله

المهمة الثالثة للشهيد إستحفاظ كتاب الله وشريعته، يقول تعالى:

{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء}[١].

وهذه هي المهمة الثالثة للشهيد، لأن تحريف الكتاب، وتحريف حدود الله وشريعته، من الوسائل التي تتبعها الجهة المعادية للدعوة، في إحباط دور الدين، ومسخه، وتفريغه من محتواه الرباني الحركي... بعد أن تفشل هذه الجبهة من استئصال الدعوة من حيث الأساس.

ولذلك نظائر في الشرائع الإلهية السابقة في تاريخ الدعوة والرسالة. وقد أولى الله تعالى الشهداء مهمة المحافظة على الكتاب والشريعة من التحريف والتشويه، واستحفظهم كتابه

---

(١) المائدة: ٤٤.

وحدوده.

وأولى الناس بأن يوليهم الله تعالى هذه المهمة هم الشهداء، فإن الشهداء أكثر الناس وعياً لشريعة الله وحرصاً على سلامته.

شروط الشهادة

إن المهمة التي يكلّف الله تعالى بها الشهيد مهمة ضخمة.

فهو من جانب مذكِّر ومعلِّم، ومن جانب آخر قدوة ونموذج، ومن جانب ثالث مسؤول عن حفظ الكتاب والشريعة.

وهذه المهام الثلاثة ترتبط بالكتاب والشريعة من جانب، ومن جانب آخر بحياة الناس، ومهمة الشهيد تطبيق حياة الناس على هدى الكتاب والشريعة، وهذه المهمة الصعبة تتطلب من الشهيد أن يكون على درجة عالية من الاستقامة والاعتدال والالتزام.

وقد تحدثنا عن ذلك من قبل في البحث عن القدوة وتجسيد الموقع الوسط.

وهـذه الاسـتقامة فـي الأنبيـاء وأوصـيائهم علـيهم السـلام بمعنى العصمة، وفي الأُمّة الشاهدة والدعاة والعلمـاء الشـهداء بمعنـى العدالـة. وهـي الالتـزام بحـدود الله تعـالى فـي الحـلال والحرام.

وهذا الشرط في الحقيقة ملحوظ في صلب معنى الشهادة، فلا نحتاج إلى أن نطيل الحديث عنه.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس